

أطر التحدي بين دائرة الثوابت و نوازع المفارقة

سعاد الوالي . جامعة فرحات عباس سطيف

الملخص

يشهد العالم اليوم، صراعا ضاريا بين محاولة لتقويض دائرة الثوابت (الهوية، اللغة،...) وتدعيم صورة الذات لتأكيد الحضور الديناميكي في حلبة الصراع العالمي، والهروب من صورة التمايز و الاختلاف الذي يعني لدى الكثيرين التلاشي والضمور. وهذا ما يسعى لتجسيده عالمنا العربي إزاء الآخر الأجنبي أو ما يطلق عليه مصطلح الأمركة.

وهنا نجد أن الذات العربية بكل مقوماتها من لغة عربية، وهوية وطنية تدخل في هذا الصراع العولمي، وتقف الأمة العربية بين محاولات حفظ لغتها وهويتها موقف الحيرة بين الأنا والآخر.

وقد تناول العديد من الباحثين موضوع العولمة كحارب سعيد في كتابه: الثقافة والعولمة، إلا أنهم لم يقفوا وقفة متأنية أمام مصير اللغة العربية والهوية الوطنية في ظل العولمة، لذا ارتأيت أن أختار هذا الموضوع بالذات بالوصف والتحليل مركزة على الجانب الجدلي بين الذات العربية والآخر، محاولة أن أجيب على العديد من الأسئلة منها:

- 1- ما هي ملامح اللغة العربية والهوية الوطنية في ظل العولمة؟
- 2- ما هو دور اللغة العربية في تشكيل الهوية الوطنية؟
- 3- ما هي انعكاسات العولمة في تشكيل اللغة العربية والهوية الوطنية؟

4- كيف نحافظ على الكيان العربي (اللغة العربية + الهوية الوطنية) من مخاطر العولمة؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة، وضعت مدخلا أبرزت فيه ملامح اللغة العربية والهوية من خلال الصبغة الاجتماعية لعلاقة اللغة العربية بالهوية الوطنية، وركزت فيه على صورة الأنا والآخر، وفي الفصل الأول بينت دور اللغة العربية في تشكيل الهوية الوطنية في مجال الحياة الدينية والتاريخية كمقوم تاريخي ومقوم عقائدي ثم في مجال الحياة الفنية كمقوم للعبقرية والإبداع.

أما في الفصل الثاني فذكرت انعكاسات العولمة على تشكيل اللغة العربية والهوية الوطنية، من الناحية الإيجابية والناحية السلبية، وفي الفصل الثالث تطرقت إلى كيفية المحافظة على الكيان العربي (اللغة العربية + الهوية الوطنية) من مخاطر العولمة من خلال النهوض بالمبادئ التراثية والتاريخية؛ كاستيعاب التراث الثقافي العربي ودعم اللغة العربية والهوية الوطنية عن طريق ثقافة التعدد إلى جانب فتح جبهات منفتحة على الآخر وفي الخاتمة تطرقت إلى أهم النتائج المتحصل عليها.

وفي الختام لا يسعني إلا أن أقدم إلى جامعة باتنة بجزيل الشكر التي أتاحت لنا البحث في هذا الموضوع. و دراستي هذه لا تخلو من التقصير لأن الكمال لله سبحانه و تعالى.

مدخل:

إن الإطالة على ملامح اللغة العربية والهوية الوطنية في ظل مصطلح العولمة يتم وفق تحديد :

أولاً: الصبغة الاجتماعية لعلاقة اللغة العربية بالهوية الوطنية :

1- من خلال صورة الأنا والآخر :

ونقصد بهذا المصطلح الذات العربية في مقابل صورة الآخر الأجنبي لأنه كما يرى هيجل: " لا يمكن للهوية أن تعرف بدون الاختلاف، وإن الآخر ضروري لأعرف من أنا"⁽¹⁾. فالأنا إذن تتجلى صورتها إثر تواجد الآخر.

ولعل الحديث عن الأنا هو حديث عن " المتكلم أو الحاضر الموجود المتمتع بشخصية محددة، وهوية معينة وإنية محددة الخصائص والسمات في الزمان والمكان."⁽²⁾ أما الآخر "فهو المغاير أو المختلف، هو المقابل حاضراً كان أو مغيباً، المستقل عن الأنا أو المتصل به إن بالتوافق أو المغايرة في خصائص معينة في الفعل والزمان والمكان"⁽³⁾.

(1) إمام عبد الفتاح إمام: "دراسات هيجلية"، دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة، دط، 1985، ص 304/305.

(2) مكدونالد لادل: "قاموس مصطلحات علم النفس" ترجمة: يوسف ميخائيل أسعد، دار النهضة القاهرة، دط، دت، ص 43.

(3) المرجع نفسه: ص 43

ولعل تفعيل الحديث عن اللغة العربية، والهوية الوطنية سببه الرئيسي أزمة البحث في الهوية "ومن الطبيعي أن تتعمق أزمة البحث عن هذه الخصوصية نتيجة الجذب الحضاري العاصف الذي ما فتئت تمارسه الحضارة الغربية المهيمنة...معلنة أنها تملك مشروعا حضاريا كونيا لا يمكن لأمة من العالم الفكاك منه إلا إذا حكمت نفسها بالبقاء على الهامش"⁽⁴⁾

وهذا المشروع هو ما يدخل ضمن ما يسمى بالعولمة*، وهو مصطلح "...يحمل أبعادا اقتصادية وسياسية وثقافية واجتماعية وأمنية، تتصف بالتداخل في اتجاهات عديدة نحو مضامين جديدة للمتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وكذلك الأمنية التي يشهدها العالم اليوم..⁽¹⁾ فالعولمة إذن ذات أبعاد ودلالات متعددة.

وبعد التواصل الاجتماعي هنا حقيقة لا مفر منها "فهو شرط أساسي لحدوث التفاعل، إذ لا يمكن للفرد أن يتفاعل مع الآخر أو

(4) الحلاق راتب محمد: "نحن و الآخر" -دراسة-، منشورات إتحاد الكتاب العرب دمشق، دط، 1997، ص31.

* يعود لفظ عولمة في أصله في اللغة الإنجليزية إلى كلمة Global التي تعني عالمي أو بمعنى أدق كروي و يأتي هذا المصطلح في أحيان كثيرة بصيغة Global village أي القرية العالمية حيث يصبح العالم عبارة عن قرية كونية واحدة: ينظر: الورفلي الحمروني ونيسة: العولمة و الدولة- دراسة أثر العولمة على وظائف السلطة السياسية: منشورات أكاديمية الدراسات العليا طرابلس، ط 1 2004، ص62.

(1) المرجع السابق: ص62.

الجماعة إذ هو لم يتصل بهم⁽²⁾، و يرجع سبب هذا الاتصال بين الذات و الآخر في رأي ابن خلدون: " إلى أن الاجتماع الإنساني ضروري، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم الإنسان مدني بالطبع"⁽³⁾.

وهذا ما يقودنا إلى القول: أن الإنسان بطبيعته الفطرية بعيد عن الطابع الانعزالي والتفرد، وقد أشار الله جل شأنه في محكم تنزيله إلى ذلك في قوله: **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**⁽⁴⁾، فكان التواصل بهذا حقيقة أفرتها الإرادة الإلهية لأنه " من العسير على الفرد الواحد أن يعيش مستقلا....فالفردية تموت أو تكاد لا تقوى على البقاء"⁽⁵⁾.

فالإنسان لا بد أن يتواصل مع غيره للحفاظ على هويته التي يبحث فيها على الدوام: " ذلك أن البحث في الهوية إنما هو بحث يجب أن يهدف أصلا إلى المساهمة في عملية النهوض الشاملة التي تتطلع

(2) النابلسي محمد: "الاتصال الإنساني و علم النفس"، دار النهضة العربية للطباعة و النشر و التوزيع، دط، 1991، ص51.

(3) ابن خلدون: المقدمة، دار الجيل بيروت، دط، دت، ج1، ص30.

(4) الحجرات/13

(5) العشماوي ، زكي محمد: قضايا النقد الأدبي القديم والحديث، دار النهضة العربية بيروت، دط، 1984، ص126/127.

إليها الأمة، إنه تنمية حضارية هدفها خوض نضال حضاري ضد تحد حضاري يواجهنا⁽¹⁾.

فالذات تتراءى لنا في صراعها الدائم مع الآخر الذي في كثير من الأحيان يسعى لإجبارها "على التخلي عن ثقافتها باعتبارها حضارة دونية وقبل حضارية ومتهافنة"⁽²⁾.

ومن خلال ما تطرقنا إليه نستشف أن الذات بكل مقوماتها (اللغة+ الهوية الوطنية) في رحلتها الحياتية كثيرا ما تصطدم بالآخر الذي يسعى لاستلاب هذه المقومات، و جعل الذات تعيش في مرحلة تغريب حضاري.

الفصل الأول: دور اللغة العربية في تشكيل الهوية الوطنية

لقد لعبت اللغة العربية دورا فعالا في تشكيل الهوية الوطنية ونستشف ذلك من خلال صداها في:

أولا: مجال الحياة التاريخية والعقائدية:

(1) الحلاق، راتب محمد: نحن و الآخر، ص34.

(2) المرجع السابق، ص31.

وهو مجال أبرز عن تعالق اللغة العربية بالهوية الوطنية منذ أمد بعيد من خلال اعتبارها:

1- كمقوم تاريخي:

تعتبر اللغة العربية من بين اللغات الضاربة في أعماق الحضارة العربية، و بذلك فهي تعد موروثا ثقافيا ساهم مساهمة فعالة في بناء الشخصية العربية والهوية الوطنية، بل كانت موسوعة ثقافية ساهمت في إرساء قواعد الحضارة التي تعتبر نتاجا معرفيا خالصا إذ "تقوم على التنوع والتعدد"⁽¹⁾.

من خلال هذا التعريف نصل إلى أن الحضارة هيكل شامخ ساهم في بنائه العديد من المواد من بينها اللغة التي تعد "أعلى ميراث. كما هي كلام خاص يتيح نوعا من التعاطي الخاص معها لا يكون تعاطيا براغماتيا كما في كثير من الخطابات الأخرى، حيث تستخدم أكثر ما تستخدم كأهم وظيفة تقوم بها"⁽²⁾.

والمتصفح للتاريخ العربي خاصة العصر الجاهلي، أين كانت البساطة والعفوية، والقبيلة هي مصدر التشريع، يلاحظ أن اللغة العربية

(1) حارب سعيد: "الثقافة و العولمة"، دار الكتاب الجامعي العين/الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2000، ص75.

(2) عبد الكريم أحمد: "تجلي الشعر في كل شيء"، جريدة النصر تأسست في 28 سبتمبر 1963 عربت في 1 جانفي 1972، العدد 12623 جويلية 2008.

كان لها الحظ الوافر في الخطابات اليومية باعتبار العرب شعباً يعتمد على المشافهة بالدرجة الأولى.

وعلى الرغم من ذلك كان العرب من أفصح الأمم إذ يقول ابن رشيق: "العرب أفضل الأمم، وحكمتها أشرف الحكم، لفضل اللسان على اليد، والبعد عن امتهان الجسد، إذ خروج الحكمة عن الذات بمشاركة الآلات، إذ لا بد للإنسان من أن يكون تولى ذلك بنفسه أو احتاج فيه إلى آلة أو معين من جنسه." (1)

بل لقد كانت اللغة هي الوسيلة المثلى لوصف مكونات الفرد الجاهلي الذي كان في كثير من الأحيان يعبر عن هموم الجماعة (الهوية القبلية آنذاك)، ولنا في شعراء المعلقات ولا سيما شعر عنترة العنسي المثل الأعلى (2)، فقد كان لكل قبيلة شاعر يجيد قواعد اللغة سليقة فكان بذلك فخر القبيلة وفخر هويتها في ذلك الوقت، لذلك كان الاحتفال بولادة شاعر ما داخل القبيلة احتفالاً لا يضاهيه أي احتفال، وهذا ما أشار إليه ابن رشيق في قوله: "كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها ووضعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن

(1) ابن رشيق: "العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده"، تر: عبد الحميد هنداوي،

ج1 و ج2، المكتبة العصرية صيدا بيروت، ط1 2001، ص12.

(2) التبريزي الخطيب: "شرح ديوان عنترة"، دار الكتاب العربي بيروت، دط،

2004، ص25.

بالمزاهر - كما يصنعون في الأعراس - ويتباشرون الرجال والولدان لأنه حماية لأعراضهم وذب عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم وإشادة بذكرهم⁽³⁾، وكأن الاحتفال هنا هو احتفال ليس بالشاعر فحسب، إنما هو احتفال بما يرمز إليه من لغة وانتماء وهوية.

ولعل النقاد الذين جاؤوا في فترات متعاقبة من القرن الخامس و ما تلاه أثبتوا لنا حرصهم على اللغة العربية التي هي في الآن ذاته رمز الهوية، كما أثبتوا لنا أن الشاعر الجاهلي رغم سليقته في إجادة الشعر إلا أنه ضمن شعره قواعد لم يحد عنها أي شاعر في تلك الفترة - باستثناء الشعراء الصعاليك الذين اخترقوا المقدمة الطليية واستبدلوها بنظام المقطوعات - والتي أوضحها ابن قتيبة حينما استعرض نسيج القصيدة الجاهلية بقوله: "وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار فبكى واشتكى وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الطاعنين عنها، إذ كانت نازلة العمد في الحلول والظعن"⁽⁴⁾.

فهنا تتضح لنا القواعد الصارمة التي وضعت للحفاظ على اللغة العربية التي تعبر عن هوية الفرد الجاهلي آنذاك والتي توازي مفهوم

(3) ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعرو آدابه و نقده، ص53.

(4) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، دار إحياء العلوم، بيروت، ط3، 1987، ص31.

الهوية الوطنية في وقتها الراهن. بل إن جهود الخليل الفراهيدي⁽¹⁾ في استنباط الأوزان الشعرية ليدل دلالة واضحة على غيرة هذا الرجل على اللغة العربية والحفاظ على إيقاعاتها، فأبدع بذلك علما أسماه علم العروض.

ولم يكتف العرب بالعناية باللغة العربية من هذا الجانب فحسب، بل إن العلماء الذين جاءوا من بعد وضعوا علوما ضبطية كعلم النحو ورائده أبو الأسود الدؤلي، ومبادرات مدارس الكوفة والبصرة، وجهود العلماء الآخرين في إرساء قواعد اللغة العربية دون أن ننسى علم الصرف كذلك.

ولعل كل هذه الجهود المتعلقة بتصحيح اعوجاج اللغة خاصة بعد شيوع اللحن فيها إثر الفتوحات الإسلامية، و دخول الأعاجم في الدين الجديد كان له النصيب الأوفر في حفظ اللغة العربية، والهوية الوطنية. فهذه المبادرات التي قام بها العلماء عبر سلسلة تاريخية متلاحقة، جعلت اللغة العربية بالنسبة لنا مقوما تاريخيا يشكل لنا ما يسمى بالهوية القومية التي أسفرت فيما بعد عن نشوء الهوية الوطنية داخل الأقاليم المتباينة كهوية الفرد الجزائري، المصري....و نشوء ما يعرف بمصطلح الدولة التي تعد القاعدة الأساسية في تنظيم تعامل الشعوب لأنه: "من

(1) ابن رشيق: العمدة ، ص121

غير الممكن أن توجد أي جماعة اجتماعية بلا سلطة حيث أن الإنسان ليس كائنًا اجتماعيًا ومفكرًا فحسب، بل هو كائن متعدد الأهواء والرغبات، ولديه كما يذهب إلى ذلك الفيلسوف كانت مزاج اجتماعي يدفعه إلى الرغبة في تشكيل كل شيء على هواه⁽²⁾.

فالدولة من خلال هذا المفهوم سلطة منظمة للسلوك الإنساني، ويعتبر الفرد عنصرا مهما من خلال ما يستعمله من إرث حضاري أي اللغة التي تجسد ملامح هويته الوطنية والقومية على حد سواء.

2- كمفهوم عقائدي:

إن اللغة العربية -كما أشرنا سابقا- تعتبر من أرقى اللغات خاصة، وأن القرآن الكريم نزل بلسان أهل قريش ليكون معجزة للعالمين إذ يقول جل شأنه: { وكذلك أنزلناه قرءانا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلمهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا }⁽¹⁾ فكان بذلك مقوما عقائديا أساسيا ساهم في تشكيل الهوية ليس فقط الوطنية بل القومية كذلك نظرا لخصوصية القرآن: " أليس القرآن فيه الشفاء من جميع الأمراض الاجتماعية، أليس من أحكامه العدل والمساواة بين الناس؟ ألم يأت بقوانين عادلة ما حرمت من الأشياء إلا ما فيه مضرة وفساد، و حثت

(2) كلاستر بيار: مجتمع اللادولة، تر: محمد حسين دكروب، المؤسسة الجامعية

للدراسات و النشر، بيروت، ط3، 1991، ص118.

(1) طه / 113.

على كل ما فيه مصلحة ومنفعة؟⁽²⁾، إن القرآن بهذا لا يحافظ فقط على الخصوصية القومية بل إنه بتعاليمه صالح لأن يحتضن المفاهيم العالمية.

كما أن السنة النبوية الشريفة، رسخت مبادئ احترام اللغة العربية و تعليمها باعتبارها مقوما عقائديا محضا. فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يطالب الأسرى بتعليم من لا يعرف القراءة والكتابة من المسلمين، لقاء حريتهم. أليس في هذا مدعاة للحفاظ على اللغة العربية والهوية الوطنية، وجعلها سببا للحفاظ على العقيدة الإسلامية وترسيخها أكثر. أليس في كتاب عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- إلى أبي موسى الأشعري "مُر من قبلك بتعلم الشعر، فإنه يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب." ⁽¹⁾ ، ألا يدل هذا على محاولة الحفاظ على الهوية وحفظ اللغة العربية معها، وحفظ الكيان العقائدي الذي نستشفه من خلال لفظ "الأخلاق"؟.

كما أن الحروب التي خاضها المسلمون ضد الكفار في سلسلة تاريخية متعاقبة لدلالة واضحة على محاولة العرب الحفاظ على الدين

(2) العريايوي، عمر: الاعتصام بالإسلام، مطبعة اللغتين، الجزائر، ط1، 1982،

ص102.

(1) ابن رشيقي: "العمدة"، ص19.

الذي هو هويتهم العقائدية، والمحافظة كذلك على اللغة العربية التي هي أصل القرآن.

ومن هنا نستشف أن اللغة العربية التي هي لغة القرآن الكريم كانت مقوما عقائديا ساهم في تشكيل هوية الإنسان العربي، وتمييزه عن باقي الهويات الأخرى. خاصة و أن "حاجة الإنسانية إلى الدين كحاجة الجسم إلى الغذاء، و وجود الدين في المجتمع الإنساني ضرورة ماسة، يفقد المجتمع - إن فقدها - عقله وأمانه وتوازنه."⁽²⁾ فكان الدين بذلك مرجعية هامة تحفظ هوية الأمة ولغتها من الضياع والاندثار أمام معالم العولمة الجديدة.

ثانيا: في مجال الحياة الفنية:

إن اللغة العربية منذ زمن بعيد استطاعت أن تخلق نماذج إبداعية رائدة سواء في ميدان الشعر أو النثر، عبرت بصدق عن هويتها الوطنية فكانت بذلك ك:

1- مقوم للعبقرية والإبداع:

إن العبقرية والإبداع يصبان في قالب واحد هو قالب الفن، والذي يعرف بأنه "نشاط إنساني يقوم على أن ينقل أحدهم إلى الآخرين عن

⁽²⁾ الغزالي محمد: "من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي المسلح"، شركة الشهاب، الجزائر، ط2، دت، ص 255.

وعى وبإشارات خارجية مشاعر أحسها فينفعل بها الآخرون ويعانونها.⁽¹⁾ فالانفعال هو سر نجاح الإبداع الأدبي.

والمأمل في صيرورة الأمة العربية منذ العصر الجاهلي إلى الوقت الحالي يجد كيف أن اللغة كانت الركيزة الأساسية التي انطلقت منها العملية الإبداعية، و يبقى أن يستغل الفنان هاته اللغة و يعمل على تشكيلها في حلية جديدة بنسيج ذي خيال خصب فالفنان: " يضع اللبنة في أماكنها طلبا للتكامل والتجانس والتناسق."⁽²⁾ ولنا في شعر القدماء كعنترة العبسي المثل الأعلى، والذي استطاع من خلال إبداعه الفني أن يجسد قيم الهوية القبلية في ذلك العصر. ولعل لمبدعي العصر الحديث نصيب في الإبداع والفن وفي الارتقاء باللغة العربية من خلال الإبداع الفني، الشيء الذي جعل إنتاجهم الإبداعي لا ينحصر فقط في رصد حدود الوطن والهوية الوطنية بل عمل على اختراق حدود الوطن الضيقة إلى العالم الرحب بشكل لا إرادي ليعانق المنتجات العالمية، وكل هذه الإبداعات ولدت عن طريق اللغة كمادة والفنان كصانع لهذا المادة،

(1) ل ن تولستوي: "انفعالية الفن، سيكوفيزيولوجيا الانفعالات"، تر: يوسف حلاق، نقلا عن الأعمال الكاملة في 90 جزءا، موسكو 1928-1955، ج 30/ص 65، مجلة الآداب الأجنبية، إتحاد الكتاب العرب، دمشق، عدد 35، 36، 1983، ص 9.

(2) مونسي حبيب: "شعرية المشهد في الإبداع الأدبي"، دار الغرب للنشر و التوزيع، وهران الجزائر، دط 2003، ص 180.

كريح الجنوب لابن هدوقة الذي جسد من خلال هذه الرواية واقع الشعب الجزائري، و تناقضات الفكر بين واقع الريف وواقع المدينة، أي بين الفضاء المغلق والفضاء المفتوح. أو منتجات الروائيين المصريين كإحسان عبد القدوس وغيره من المبدعين العرب في شتى مجالات الحياة.

ولعل هذه المنتجات الأدبية تطرح إشكالية تواجد الأنا أمام الآخر، مما يجعلنا نطرح السؤال التالي: هل اللقاء بين الأنا والآخر هو إثراء للتجربة الإنسانية بصفة عامة أم أن هذا له انعكاس أمام تشكل الهوية الوطنية، خاصة في إطار ما يسمى اليوم بالعولمة. هذا ما سأحاول الإجابة عنه في المحور الموالي.

الفصل الثاني: انعكاسات العولمة في تشكيل اللغة العربية والهوية الوطنية.

إن لكل عنصر دخیل وجديد على أمة ما نكهته الخاصة وبصمته الإيجابية والسلبية، وهذا ما أفرزته معالم العولمة الجديدة :

أولاً: الناحية الإيجابية:

1-العولمة كرافد معرفي:

تعتبر العولمة رافدا معرفيا له صبغته الخاصة وله اتجاهه الخاص، وهذا ما يزيد في إثراء التجربة الإنسانية فنحن " عندما نتحدث عن الآخر فنحن لسنا مقياسا، بل لسنا معيارا. من يختلف علينا فليس شاذاً، ليس ناقصا ليس غريبا تماما، كما أننا نحن لسنا شاذين، لسنا

ناقصين، لسنا غريباء بالمقارنة مع الآخر ببساطة، ليست البشرية حجارة مصنوعة في قالب بل أناس، بشر، والحقيقة أن كل واحد منا يختلف عن الآخر جميعاً.⁽¹⁾

فالمختلف عنا إذا هو ليس بالضرورة الأنا، والمخالف لنا ليس هو في ذات الوقت عدو، بل إنه يعتبر رصيذاً هاما يضاف إلى رصيد الأمة التي لا يتم كيانها إلا باللغة العربية التي تعتبر الركيزة الأساسية في بناء الهوية الوطنية، ومن المتعارف عليه أن: "الأصل في الفكر - إذا جرى مجراه الطبيعي المستقيم - هو أن يكون حواراً بين (لا) و(نعم)، وما يتوسطها من خلال وأطراف، فلا الرفض المطلق الأعمى يعد فكراً ولا القبول المطلق الأعمى يعد فكراً ففي الأول عناد الأطفال، وفي الثاني طاعة العبيد."⁽²⁾

فالاختلاط بالآخر ليس هو الذوبان بقدر ما يعني التعدد والتنوع، فالذين يميزون بين الشرق والغرب "يغضون البصر عن حقيقة أن الحضارة الحديثة ليست أوربية خالصة - على الرغم من الظاهر والادعاء - بقدر ما هي إنسانية وشاملة في مداها وانتشارها بعيوبها

(1) جبران سالم: "هو الآخر بالنسبة لي، أنا الآخر بالنسبة له"، مجلة مشارف، القدس حيفا، العدد 2، 1995، ص 21

(2) محمود، زكي نجيب: تجديد الفكر العربي، دار الشروق بيروت، ط 5، 1978، ص 30.

ومحاسنها، فالحضارة الحديثة هي خلاصة تقدم وإنجازات الحضارات السابقة... ويكتفي هؤلاء بدمج الحضارة الحديثة بأنها أوربية مادية وملحدة⁽¹⁾.

فالآخر إذن هو إثراء وإضافة إلى رصيد الأمة المعرفي والثقافي، فنحن كما يقول أحدهم: "لا ينفعنا الجمود ومعاداة كل أشياء الأجنبي باسم الوطن، فإن الوطن للبشر الواحد هو دار الأعمال والتكاليف التي تطلب من الكل، وتوزع على الكل ويتبادلها الكل، وليس حب الوطن هو الكز على عادات الأسلاف"⁽²⁾، لأن هذا يجعلنا محاصرون في دائرة الجمود. لذا يجب أن نطبق القول القائل "ليكن إخاء عام وتعاون عام، ونظام عام ووطن عام وسلام عام في ظل قوة عامة"⁽³⁾. وبذلك نحافظ على الهوية في إطار الكل المتفق المتعاون.

2-العولمة كميزان قوة:

هناك من ينظر للآخر الأجنبي في ظل دائرة الصراع العالمي من منطلقات فكرية يؤمن بها، على أنه مدعاة للخلاص ومركز القوة الفعالة

(1) الخطيب، محمد كامل: الإصلاح و النهضة، وزارة الثقافة، دمشق، ط 1 1992،

ص 16

(2) الزهرواي، عبد الحميد: نظام الحب والبغض، مجلة المنار، المجلد السادس،

ص 775 ، المجلد السابع ص 187.

(3) المرجع نفسه، الصفحة نفسها

فيقول: " هذا هو مذهبي الذي أعمل له طول حياتي سرا و جهرا، فأنا كافر بالشرق مؤمن بالغرب، وفي كل ما أكتب أحاول أن أغرس في ذهن القارئ تلك النزعات التي اتسمت بها أوربا في العصر الحديث، وأن أجعل قرائي يولون وجوههم نحو الغرب وينفصلون عن الشرق، لأنني أعتقد أن لا رجاء لنا بالنجاح في العالم إلا بذلك." (4)

فالغرب إذن هو القوة وهو المنقذ للعالم العربي، ويضيف هذا القائل في موضع آخر: " إذا كانت الشمس تشرق من الشرق فإن النور يأتينا من الغرب" (5).

وهو موقف يأبى الانكماش والتفوق على الذات، ويرغب في الاتصال بذات حضارية أخرى تدعم صورته وهويته، وعلى الرغم من هذه الإيجابيات المذكورة إلا أن هناك من يرى أن هذا بالضرورة لا يقودنا إلى رؤية الآخر بمنظر القداسة، بل إن العولمة كذلك لها ناحية سلبية.

ثانيا: الناحية السلبية:

- العولمة كدخيل:

إن الكثير من مفكري العرب أوصدوا أبوابهم أمام الوافد الجديد متناسين أن " هناك ثقافة جديدة للعولمة ستطرح على الشعوب وتتداخل

(4) موسى سلامة: اليوم والغد، المطبعة العصرية، القاهرة، ط1، 1927، ص 256.

(5) موسى سلامة: "الأدب الشعبي"، الانجلو، القاهرة، ط1 1956، ص12.

مع الثقافة الموروثة في المجتمع، وتدفع الأفراد إلى تبني أساليب ذات مضامين جديدة عالمية وفق الانتقال الذي تطرحه العولمة عبر الدول بدون قيود وخلق ثقافة كونية واحدة.⁽¹⁾

وهنا تكون العولمة كقدر محتوم لن تستطيع حتى الدولة نفسها من إيقافه، فمن المتعارف عليه " أن سيادة الدولة تعني أنه لا يجوز لأي طرف خارجي التدخل في شؤونها الداخلية مهما كانت الظروف والأحوال، بيد أن ما يطرح في العولمة هو اختراق لهذه السيادة."⁽²⁾

وفي حقيقة الأمر كل هذا يؤدي إلى العديد من المشاكل حتى داخل الدولة نفسها، ولعل "من آثار العولمة سحق الهوية الوطنية وإعادة تشكيلها في شخصية عالمية يفقد الفرد فيها جذوره ويتخلى عن ولاءه وانتمائه، والانتقال إلى العمومية واكتساب هوية جديدة تجر الفرد إلى حالة من الاغتراب بين تاريخه الوطني وما أنتجته الحضارة الجديدة."⁽³⁾ وهنا يقع التمزق الذاتي حتى بين الأنا ونفسه، والأنا والآخر الأجنبي، وهذا ما يؤدي إلى " تأثر الهوية المجتمعية وضمحلها."⁽⁴⁾

(1) الورفلي الحمروني ونيسة: "العولمة و الدولة"، ص 16.

(2) المرجع نفسه: ص 93.

(3) المرجع نفسه: ص 127.

(4) المرجع نفسه: ص 97.

فالعولمة كما رأينا لها جوانب إيجابية علينا أن نستغلها، ولها جوانب سلبية علينا أن نحاول تخطيها بمنظار ثاقب، وهذا لا يتأتى إلا بخطة نضعها كي نحافظ على لغتنا العربية والهوية وهذا ما سأطرق إليه في المحور الموالي.

الفصل الثالث: كيفية المحافظة على الكيان العربي

(اللغة العربية+الهوية الوطنية) من مخاطر العولمة:

للمحافظة على أواصر الأمة العربية وما يشكل كيانها الحضاري من لغة وهوية يجب علينا:

أولاً: النهوض بالمبادئ التراثية و التاريخية: و ذلك من خلال:

1- استيعاب التراث الثقافي العربي:

إن التراث في مفهومه العام ليس مادة خام فقط نقلها الأجداد إلى الأبناء في سلسلة متعاقبة عبر الزمن، بل تكمن قيمته " بقدر ما يعطي من نظرية علمية في تفسير الواقع والعمل على تطويره، فهو ليس متحفاً للأفكار نفخر بها و ننظر إليها بالإعجاب ونقف أمامها في انبهار، وندعو العالم للمشاهدة، والسياحة الفكرية، بل نظرية للعمل وموجه للسلوك وذخيرة قومية يمكن اكتشافها واستغلالها واستثمارها من أجل

إعادة بناء الإنسان وعلاقته بالأرض، وهما حجرا العثرة اللتان تتحطم عليهما كل جهود البلاد النامية في التطور والتنمية.⁽¹⁾

فالتراث إذن ذخيرة قومية تقويمية للسلوك الإنساني، يهدف إلى مواجهة المتغيرات الفكرية والحضارية. ولكن يجب أن لا يصرفنا هذا الإعجاب بالتراث إلى جعله في مرتبة التقديس من أجل المحافظة على مكوناته من (لغة وهوية) فقط: "فما أسرع ما يتحول الأمر عند الإنسان من إعجاب بالقديم إلى تقديس لما يوهمه بأن ذلك القديم معصوم من الخطأ، فعندئذ تتسدل الحجب الكثيفة بين الإنسان، وبين ما قد جاءت به الأيام من تطورات في العلم والمعرفة."⁽²⁾

فالإفراط في الإعجاب بالقديم إذن له نتائج سلبية تعود وبالا على الأمة إذا لم يكن هناك وعي، بل إن "الموروث الإنساني لا يكفي وحده للتعولم إذا لم يكن الإنسان كفرد قادرا على التعامل مع معطيات ذلك العصر، ولذا فإن إعادة صياغة وتكوين الإنسان هي الأداة المثلى لقيامه بدوره."⁽¹⁾ وذلك عن طريق تشجيع العلم والتعلم لأننا "إزاء قوة تتطلب حشد كل ما لدينا من وسائل، و تحتم علينا أن نقف لمحاربتها بعقل

⁽¹⁾ حنفي حسن: "التراث والتجديد"، دار التنوير للطباعة والنشر بيروت، ط1، 1981، ص11.

⁽²⁾ محمود ، زكي نجيب: تجديد الفكر العربي، ص30.

⁽¹⁾ حارب، سعيد: الثقافة والعولمة ، ص16/17.

وفكر وإرادة، و لا يكون ذلك بغير العلم: العلم الذي هو قوة ثورية هائلة، والذي يمكن صاحبه من القدرة والغلبة والانتصار"⁽²⁾

فالعلم إذن هو إحدى المقومات الأساسية التي تساعد في استيعاب الموروث الحضاري، ومحاولة توظيف ذلك الموروث بآليات جديدة تتناسب ومتطلبات العصر. فالإنسان بصفة عامة والفرد العربي بصفة خاصة يجب عليه أن يمسك العصا من الوسط، أي يتعامل مع التراث بوعي تام وينفتح على أبواب العصر بوعي تام أيضا.

2- دعم اللغة العربية والهوية الوطنية من خلال ثقافة التعدد:

إن دعم اللغة العربية والهوية الوطنية من خلال ثقافة التعدد لا يتم إلا من خلال الوقوف " من حضارة الغرب ومن نظامه العالمي الجديد موقف المتفهم والمستوعب والناقد والمتعلم، لا موقف الزبون."⁽³⁾ وبذلك فإننا عن طريق هذا التفاعل البناء والفهم الممحس للآخر نتمكن من خلق " ثقافة إيجابية إنسانية غير منغلقة قائمة على الحوار مع الثقافات الأخرى، والتواصل معها وعلى الأخذ والعطاء على قدم المساواة."⁽⁴⁾

(2) الغزالي، محمد: من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي المسلح، ص48.

(3) الحلاق، راتب محمد: نحن و الآخر، ص 41.

(4) اللاوندي، سعيد: بدائل العولمة- طروحات جديدة: تجميل وجه العولمة القبيح"، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، 2004، ص16.

وهذا مراعاة للاستمرارية، فمن جهة نتواصل مع الآخر لنأمن شره، وفي الآن ذاته هو دعم لهويتنا لأننا " لن نقاوم هذا المارد إلا بدعم هويتنا فندفعها إلى التمرکز والثبات كي تقاوم الذوبان والتشظي " ، لأنه من المعلوم ومن الأمور التي لا يختلف فيها اثنان أن " الإنسان الذي نجح في صياغة منظومات قيم تقليدية ساعدته على التوجه في المجتمع والعالم خلال قرون يستطيع أن يعيد بناء هذه المنظومات التقليدية التي صيغت من أجلها، وأن يعيد النظر إلى واقع المجتمعات من خلال منظومات عولمية أيضا"⁽¹⁾. أي محاولة العيش في ظل تعدد الثقافات. بل إنه يجب علينا استيعاب هذه الثقافات و" أن يكون إسهامات تتقدم بها الشعوب الأخرى في أوربا والعالم الثالث سواء بالإضافة أو التعديل."⁽²⁾ وهذه هي المشاركة الفاعلة، لأن التبعية للآخر والالتفاف حوله دون وعي " يؤدي إلى المزيد من فقدان الهوية والقيم"⁽³⁾ ، وفقدان هذين العنصرين هو تهديم لكيان الأمة العربية ككل.

3- فتح جبهات محورية مفتوحة:

(1) المرجع نفسه ، ص167.

(2) المرجع السابق: ص13.

(3) فرحان، صالح: المادية التاريخية والوعي القومي عند العرب، دار الحداثة بيروت، ط2، 1981، ص7.

إن فتح جبهات محورية مفتحة أمر تفرضه طبيعة المرحلة الانتقالية التي يشهدها العالم بأسره، وهذا الانفتاح الذي أنشده هو انفتاح معتدل لأنه من المعروف أن "الالتحاق بالمشروع الغربي، والتخلي عن الهوية والخصوصية خيانة ما في ذلك ريب، لأنها ببساطة دعوة لأن تغادر الأمة إهابها لتسكن في إهاب مستعار لم يقد على قياسها... كما أن الجمود عند منجزات عصر بعينه... خروج عن التاريخ وإهدار للخبرات وحكم على النفس بالموت." (4)

لذلك فنحن مدعوون إلى الاعتدال أو الانفتاح المعتدل وفق المحاور التالية (5):

- 1- داخلية وطنية: تدعم الثقافة وتطورها.
 - 2- إقليمي عربي: تكوين فضاء عربي ثقافي موحد مواجه للآخر.
 - 3- عالمي: دراسة موقع الثقافة في ظل التغيير العولمي.
- ووفق هذا الاعتدال نستطيع أن نحافظ على ذاتنا بكل مقوماتها (اللغة + الهوية) و أن نساير ركب الآخر بكل متناقضاته.
- خاتمة:**

(4) الحلاق ، راتب محمد: نحن والآخر، ص 41.

(5) اللاوندي ، سعيد: بدائل العولمة، ص 167 بتصرف.

لقد توصلنا من خلال معالجة ثنائية اللغة العربية والهوية الوطنية إلى أن:

- 1- الذات بكل مقوماتها (اللغة العربية + الهوية الوطنية) في رحلتها الحياتية كثيرا ما تصطدم بالآخر الذي يعمل على استلاب هذه المقومات، وجعلها تعيش في مرحلة تغريب حضاري.
- 2- المحافظة على اللغة العربية والهوية الوطنية يتطلب منا محاولة النهوض بالموروث عن طريق استيعابه ومحاولة التجديد فيه بما يتناسب والواقع المستجد.
- 3- الدعوة إلى ثقافة التعدد والتنوع هو دعم لصورة الأنا (اللغة العربية + الهوية الوطنية) أمام الآخر.
- 4- الانفتاح المعتدل هو ضرورة حتمية تفرضها طبيعة المرحلة الانتقالية التي يشهدها العالم.
- 5- القضية لم تعد منحصرة في التفاعل مع الآخر أم لا. بل في كيفية خلق هذا التفاعل، لأن الأطر الإقليمية والأطر القومية لم تعد قادرة على احتجاز روافد الآخر.

قائمة المصادر و المراجع

القرآن الكريم برواية ورش

أولاً: المصادر

- 1- ابن خلدون : "المقدمة" دار الجيل بيروت، دط، دت، ج.1

- 2- ابن رشيق: "العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده"، تر: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، ط1، 2001، ج1، ج2.
 - 3- ابن قتيبة: "الشعر و الشعراء"، دار إحياء العلوم، بيروت، ط3، 1987.
- ثانيا المراجع:**
- 1- إمام، عبد الفتاح إمام: "دراسات هيجلية"، دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة، دط، 1985.
 - 2- التبريزي، الخطيب: "شرح ديوان عنتره"، دار الكتاب العربي، بيروت، دط، 2004.
 - 3- الحلاق راتب محمد: "نحن و الآخر"-دراسة- منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 1997.
 - 4- الخطيب، محمد كامل: "الإصلاح و النهضة"، وزارة الثقافة، دمشق، ط1، 1992.
 - 5- الزهراوي، عبد الحميد، "نظام الحب و البغض"، مجلة المنار المجلد السادس و المجلد السابع
 - 6- العرياي، عمر: "الاعتصام بالإسلام"، مطبعة العينين، الجزائر، ط1، 1982.
 - 7- العشماوي، زكي محمد: "قضايا النقد الأدبي القديم و الحديث"، دار النهضة العربية، بيروت، دط، 1984.
 - 8- الغزالي، محمد: "من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي المسلح"، شركة الشهاب، الجزائر، ط2، دت.
 - 9- النابلسي، محمد: "الاتصال الإنساني و علم النفس"، دار النهضة العربية للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، دط، 1991.

10- الورفلي الحمروني، ونيسة: "العولمة و الدولة" - دراسة أثر العولمة على وظائف السلطة السياسية، منشورات أكاديمية الدراسات العليا، طرابلس ليبيا، ط1، 2004.

11- اللاوندي، سعيد: "بدائل العولمة" - طروحات جديدة تجميل وجه العولمة القبيح - نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع، ط3، 2004.

12- حارب، سعيد: "الثقافة و العولمة"، دار الكتاب الجامعي، العين/الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2001.

13- حنفي، حسن: "التراث و التجديد"، دار التنوير للطباعة و النشر، بيروت، ط1، 1981.

14- فرحان، صالح: "المادية التاريخية و الوعي القومي عند العرب"، دار الحداثة، بيروت، ط1، 1981.

15- محمود، زكي نجيب: "تجديد الفكر العربي"، دار الشروق، بيروت، ط5، 1978.

16- موسى سلامة: "الأدب الشعبي"، الأنجلو، القاهرة، ط1، 1956.

17- موسى سلامة: "اليوم و الغد"، المطبعة العصرية، القاهرة، ط1، 1927.

18- مونسى، حبيب: "شعرية المشهد في الإبداع الأدبي"، دار الغرب للنشر و التوزيع، وهران/الجزائر، دط، 2003.

ثالثا المراجع المترجمة:

1- كلاستر بيار: "مجتمع اللادولة"، تر: محمد حسين دكروب، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر، بيروت، ط3، 1991.

رابعا الدوريات:

- 1- جبران، سالم: "هو الآخر بالنسبة لي، أنا الآخر بالنسبة له"، مجلة مشارف القدس و حيفا، العدد 2، 1995.
 - 2- عبد الكريم، أحمد: "تجلي الشعر في كل شيء"، جريدة النصر تأسست في 28 سبتمبر 1963 عربت في 1 جانفي 1972، العدد 12623 جويلية 2008.
 - 3- ليون تولستوي: "انفعالية الفن، سيكوفيزيولوجيا الانفعالات، تر: يوسف حلاق، نقلا عن الأعمال الكاملة في 90 جزءا، موسكو، 1928-1955، ج30/ص65، مجلة الآداب الأجنبية، إتحاد الكتاب العرب، دمشق، عدد 36/35، 1983.
- خامسا: المعاجم**
- 1-مكدونالد لادل: "قاموس مصطلحات علم النفس"، تر: يوسف ميخائيل أسعد، دار النهضة، القاهرة، دط، دت.